محاضرات المجمع في الدورة المجمعية

(١٩٩٧-١٩٩٨)

(٢)

الرقي والتعاويذ بين اللغة والاعتقاد

الدكتور مسعود بوبو

مع وجود الإنسان وجد الخطر والخوف. ذلك الخوف الذي تبدَّى انفعالاً عرضياً مشحوناً بالتوتر والترقب والهجس، أو استقرّ في حالة مَرَضية عُصابية، أو عقدة نفسية مستديمة.

ومنذ القديم سعى الإنسان غريزيّاً لتجنب ما يرافق مثل هذه الظاهرة النفسية من قلق وذعر واضطراب، فبحث عن أمنه الروحي وطمأنينته في كل ما ظنّه سبيلاً إلى ذلك: في التحصين والسلاح وكل ما تهدَّى إليه من وسائله البدائية المبكرة، والتمس أمنه في أخيه الإنسان فتقوّى به، وبالأسْرة تؤزّره. والتجأ إلى قوى غيبية أو مرئية يحتمي بها ويلوذ بكنفها وكفالتها ضماناً من ملاحقة الخوف، أو من الإحساس الوهمي بملاحقته. وكان في جملة هذا الوهم أن لجأ إلى التعاويذ والرُقى والتميم ملاذاً من الخطر، ومآلاً إلى مَنَعَة.

واللجوء إلى الرُّقى والتعاويذ قد يكون بحثاً عن ضمانات للأمن أعلى

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

من الوسائل المتاحة التي يداخل أصحابها الخوف والحذر من أنها غير كافية. وقد يكون اللجوء إلى الرُّقى خوفاً من المجهول، أو من أهوال مظاهر الطبيعة، أو من المستقبل، أو من العدم.. إلى ما يشبه ذلك ممّا يصنفه علماء النفس في إطار الخوف "اللاشعوري" فيُلْتَمَس لمواجهته ما يجانسه من الحيطة والوقاية.

وقبل أن نتتّبع مظاهر الرَّقْي والتعويذ في الممارسة والعلاج يستحسن أن نقف عند نشأة الدلالات اللغوية التي تدور في فلك هذا الموضوع، وأن نستقصي أصولها لنعرف كيف صارت، بعيداً عن الدلالة المركزية، مصطلحاً أو ما يشبه المصطلح في الدلالة الهامشية المكتسبة.

ونبدأ بالرقى. قال ابن منظور: الرُّقى، من الرقوة وتعني دِعْص الرمل، وأكثر ما يكون إلى جوانب الأودية، قال الشاعر:

من البيض مِبْهاجٌ كأن ضجيعهَا يَبيتُ إلى رقوٍ من الرمل مُصْعِب

ابن الأعرابي: الرقوة والقُمْزة من التراب تجتمع على شفير الوادي وجمعها الرُّقا. ورقي إلى الشيء رُقِيّاً ورُقُوّاً، وارتقى يرتقي: صَعِد[1]. ورقي فلان في الجبل يرقي رُقيّاً إذا صَعَّد[1]. والرُّقية: العُوذة، معروفة؛ قال رؤبة، (أو عُرْوة بن حِزام):

فما تركا من عُوذة يعرفانها ولا رُقْية إلاّ بها رقياني

والجمع رُقى.. يقال: رقى الراقي رُقْيةً ورُقيّاً إذا عَوَّذ ونَفَثَ في عُوذته[1]. وقال ابن فارس الرازي:"رقي: الراء والقاف والحرف المعتلّ أصول ثلاثة متباينة: أحدها الصعود والآخر عُوْذَة يُتَعوَّذ بها، والثالث بقعة من الأرض"[2].

يتضح من هذا أمران أساسيان: أولهما أن أصل المعنى يدل على

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

الصعود والعلو، وعلى التعويذ. وثانيهما أن هـذا الأصل واويّ ويائي كما دلّت الأمثلة، وكما قيّد ابن منظور في قوله: "رُقيّا ورقوًّا".

وبتأمّل معنى التعويذ نجد أنه يدل على الالتجاء. قال ابن فارس: "عوذ: العين والواو والذال أصل صحيح يدل على معنى واحد، وهو الالتجاء إلى الشيء، ثم يحمل عليه كل شيء لصق به أو لازمه. وأعوذ بالله أي ألجأ إليه، وفلان عياذ لك، أي ملجأ.. والعُوْذَة والمَعَاذة: التي يُعوَّذ بها الإنسان من فزع أو جنون"(٣).

وتابع ابنُ منظور ابن فارس في إيراد المعنى بحروفه، لكنه أضاف إلى ما يُعوَّذ منه لفظة العين، قال: "يعوَّذ بها من عُلِّقت عليه من العين والفزع والجنون"(٤).

وجاء في النهاية في غريب الحديث والأثر" قول مؤلّفه: "ومنه الحديث (عائذ بالله من النار) أي أنا عائذ ومتعوّذ، كما يقال: مستجير بالله، فجعل الفاعل موضع المفعول، كقولهم: سرٌّ كاتم، وماء دافقٌ"(٥).

كما جاء فيه: "ومنه الحديث (إنما قالها تعوُّذاً) أي إنما أقرّ بالشهادة لاجئاً إليها ومعتصماً بها ليدفع عنه القتل، وليس بمخلص في إسلامه"(٥).

ويستفاد من هذا أن فكرة الالتجاء في أصل المعنى مقرونة أو معزّزة نفسياً باستشراف الطمأنينة كما توحي لفظتا "مستجير" و "معتصماً" وعبارة "ليدفع عنه القتل".

ولا يخفى على المتأمل أن التعويذ من "العين والفزع والجنون"، والرقية التي "يُرْقى بها صاحب الآفة كالحمّى والصرع، وغير ذلك من الآفات(٦) يتجهان إلى تخليص المَرْقوّ أو المَرْقِيّ مما ألمّ به من خوف أو أذى أو آفة أو سوء(٧).

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

وبشيء من التدقيق والمحاكمة يتبيّن للمتفحِّص أن أصل معنى الرَّقْي أقرب إلى المهموز منه إلى الأصل المعتل، الواوي أو اليائي، ذلك أن الأصل (رَقَأ) يدور حول إيقاف الدم أو الدمع. قال ابن فارس: "الراء والقاف والهمزة كلمة واحدة. يقال: رقأ الدم والدمع، إذا انقطعا. وفي كلامهم: (لا تَسُبُّوا الإبلَ فإن فيها رقوءَ الدم)، أي إنها تُدْفَع في الدِّيَة فيُرقأ دمُ من يُراد منه القَوَد"(٨).

وفي اللسان: وأرْقَأهُ هو وأرْقَأهُ الله: سكّنه. وفي حديث عائشة رضي الله عنها: فبتُّ ليلتي لا يَرْقَأ لي دمع. والرَّقوء، على فَعُول، بالفتح: الدواء الذي يوضع على الدم ليُرْقِئَه فيسكن، وفي الحديث لا تسبّوا الإبل فإن فيها رقوءَ الدم ومَهْرَ الكريمة، أي إنها تُعطى في الديات بدلاً من القَوَد فتُحْقَن بها الدماء ويسكن بها الدم. ورجلٌ رَقوءٌ بين القوم: مصلح"(٩).

يستخلص من هذا أن الأصل اللغوي "رقأ" ينعقد على إيقاف (الدمع والدم والتسكين) بعناية الله تعالى أو بالدواء، كما ينعقد على (حقن الدماء)، أو عدم هدرها، وعلى (الإصلاح). وفي كلّ ذلك ما يؤمله الخائف من الحفظ والرعاية والصون من أذى "العين والفزع والجنون والآفات"، وهذا كله أقرب إلى التعويذ، وأكثر اتفاقاً مع فكرة الرَّقي، وانصرافاً أو خلوصاً لها، على حين انصرف مدلول المعتل (رقا، رقي) إلى (أصول متباينة) كما عبر ابن فارس.

وقد يتساءل القارئ الكريم: لِمَ شاع لفظ الرَّقْي بدلاً من الرَّقْء والرُّقُوء في المصدر؟ ولِمَ شاعت لفظتا: الرُّقية والرَّقوة ولم تجيء بدلاً منها لفظة مهموزة؟. والإجابة لا تحتاج إلى طول عناء وتفكير، لأن ألفاظ: الرقء

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

والرقوء والرُّقْأة أو الرَّقأة.. ثقيلة على النطق، بل في نطقها كلفة ومشقة. ومأتي هذه المشقة من كون الحرفين المتعاقبين (القاف والهمزة) من مخرجين متجاورين، وكانت العرب ترى أن من شروط الفصاحة تركيب الكلام من حروف أو أصوات متباعدة المخارج، أضف إلى ذلك شيوع تخفيف الهمزة لتسهيل النُّطق، وربما من هنا سمَّوه: تسهيل الهمز، ومعروف أن هذا كان غالباً في قريش بوجه خاص، معروفاً في اللهجات العربية قديمها وحديثها.

ولم تقتصر الرُّقية على ما سبق ذكره من مسمَّيات يُرْقى منها صاحب الآفة كالفزع والجنون والأمراض، إنما اتسع ذلك فشمل الرُّقية من مفزعات ومخاطر أخرى، كالحسد والعين ونهشة الأفعى وأنياب الضواري وحِمام الموت والقَدَر. من ذلك قول خُفَاف بن نُدبة في فرسه(١٠):

يُصيدكَ العيرَ برفِّ النَّدا ... يَحْفِر في مُبْتكِر الراعدِ

يُعْقَدُ في الجيد عليه الرُّقى ... من خِيْفة الأنْفُسِ والحاسِد

يصف فرسه بالسرعة على نحو يمكِّن فارسه أن يصيد حمار الوحش عندما يتلألأ الندى مع السحاب الراعد المبكّر. وعلى هذا الفرس تُعْقَد الرُّقى من خشية إصابته بالعين، أو بعيون الحُسَّاد. والأنفس هنا جمع النَّفْس وهي العَيْن التي تصيب المَعِين.

ومن ذلك قول النابغة الذبياني:

تناذرها الراقون من شرِّ سُمِّها

والتناذر: أن ينذر القوم بعضهم بعضاً شرّاً مخوفاً، وهنا يعني الشاعر حية إذا لدغت قتلت(١١).

ومن ذلك قول عمرو بن شأس الأسدي(١٢):

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

ونحن بني خير السباع أكيلةً وأحْرَ بِهِ إذا تَنَفَّس عاديا
بنو أسدٍ، وردٌ يشُقّ بنانه عظامَ الرجال لا يُجيبُ الرواقيا

ينتمي الشاعر إلى بني أسد، ويفخر بجدهم الأسدِ الوَرْد الذي يمزِّق عظام الرجال بأنيابه تمزيقاً لا تنفع معه رُقى الرواقي.

ومنه قول الممزَّق العَبْدي[١٣]:

هل للفتى من بنات الدهر من واق أم هل له من حِمام الموتِ من راقِ

يتساءل إن كان للمرء منجى من أحداث الدهر ومصائبه، أو من دنوِّ الموت وقضائه، وهل بمقدور صاحب الرُّقى أن يصونه ويخلّده؟

ومن مثل هذا قول الراجز[١٤]:

لقد علمتُ والأجلُّ الباقي أن لن يردَّ القَدَرَ الرواقي

قال ابن سيده: كأنه جمع امرأة راقية (من الرُّقْية) أو رجلاً راقية، بالهاء للمبالغة. ولم يقتصر العرب في هذا الإطار على تسميتي العوذة والرقية، أو على هذين الأصلين، بل لقد عرفت لغتهم تسميات أخرى من هذا الحقل الدلالي Semantic Field مثل التميمة.

والتميمة: خرزة رقطاء تنظم في السَّير ثم يُعْقَد في العنق. والتميمة: عُوذة تعلّق على الإنسان.

قال ابن بري: ومنه قول سلمة بن الخُرْشُب:

تُعَوَّذ بالرُّقى من غير خَبْلٍ وتُعْقَد في قلائدها التَّميمُ

والتميم: جمع تميمة، وتجمع أيضاً على تمائم، وهي التعاويذ[١٥].

وقال رفاع[١٦] بن قيس الأسدي:

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

بـلادٌ بهـا نِيْطـتْ عليَّ تمـائمي وأولُ أرضٍ مسَّ جلـدي تُرابُهـا

قال أبو منصور (الأزهري): التمـائم واحدتهـا تميمـة، وهـي خـرزات كان الأعراب يعلّقونهـا على أولادهـم ينفـون بهـا النَّفس والعين بزعمهم فأبطله الإسلام، وإياها أراد الهذلي (يعني أبا ذؤيب) بقوله[١٥]:

وإذا المنيـة أنشـبت أظفارَهـا ألفيْـتَ كـلَّ تميمـةٍ لاتَنْفَـع

وقال آخر:

إذا مـات لم تُفْلـح مُزينـةُ بعـدَه فنوطي عليـه، يـامُزَيْنُ، التمائمـا

واختلفوا في وصـف التميمـة وبيـان شـكلها وكيفيتهـا؛ فقـد جـاء في اللسان، إضافة إلى ماسبق ذكْره: والتميمة: قلادة مـن سيور، وربما جعلت العُوذة التي تعلَّق في أعنـاق الصبيـان.. قـال أبومنصـور: ومـن جعـل التمـائم سيوراً فغير مصيب، وأما قول الفرزدق:

وكيـف يَضِـلُّ العنـبري ببلـدةٍ بها قُطـت عنـه سُيُور التمـائم؟

فإنه أضاف السيور إلى التمائم لأن التمـائم خَـرَز تثقـب ويجعـل فيهـا سيور وخيوط تُعلّق بها. قال: ولم أرَ بـين الأعـراب خلافـاً أن التميمـة هـي الخرزة نفسها، وعلى هذا مذهب قول الأئمة. وقال طفيل (الغنوي):

فـإلاّ أمُـتْ أجعـلْ لنَفـرٍ قـلادةً يُتـمُّ بهـا نَفْـرٌ قلائـده قبْـلُ

قال: أي عاذه الذي كان تقلّده قبـل، قـال: يُتـمّ: يحطهـا تميمـة خـرزِ قلائده إلى الواسطة، وإنما أراد أقلّده الهجاء[١٧].

ونقل صاحب المزهر (٤٨٧/١) عن ابن دريد وابن خالويـه: "كـانت نساء الأعراب يُؤخّذن الرجال بخـرزة يقلْـنَ: ياقَبَلـة اقبليـه، ويـاكرارِ كُرِّيـه، أعيذه باليَنْجَلِب. (قال): هكذا جاء الكـلام وإن كـان ملحونـاً؛ لأن العـرب

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

تُجري الأمثال على ماجاءت، ولاتستعمل فيها الإعراب".

والقَبَلة: ضرب من الخرز يُؤَخَّذ بها. وكَرَارِ: خرزة للتأخيذ، ومثلها اليَنْجلب.وجاء في اللسان (قَبَل): والقَبلة: حجر أبيض يجعل في عنق الفرس، يقال: قلّدْها بقَبَلة. والقَبْلة والقبيل: خرزة من خرز نساء الأعراب اللواتي يؤخّذن بها الرجال، وأنشد:

جَمَّعْنَ من قَبَلٍ لهنّ وفَطْسةٍ والدَّردبيس مُقابلاً في المنْظَمِ

والقَبَلة: ماتتخذه الساحرة ليقبل بوجه الإنسان على صاحبه.. وربما عُلّقت في عنق الدابة تدفع بها العين. وقال أيضاً (فطس): والفَطْسة، بالتسكين: خرزة يؤخَّذ بها، يقولون: أخَّذْتُه بالفَطْسة، بالثُّوبا والعَطْسة.

ويبدو أن للعطسة حظّها من عالم السحر والمعتقدات "الميثولوجية"؛ إذ كانت العرب تقول للرجل إذا مات: عطست به اللُّجَم. واللُّجمة: ماتطيرتَ منه، والعاطوس: دابة يُتشاءم بها وكانوا يتطيرون من عُطاس العاطس، فمن هاهنا جاء التأخيذ. ولعل "تشميت العاطس" من هنا جاء أيضاً وتشميته: الدعاء له بالخير والبركة إذا حمد ا لله. وقيل: معناه أبعدك ا لله عن الشماتة، وجنّبك مايُشْمت به عليك (اللسان: شمت).

ويبدو أن مأتى هذا تطيُّرهم أو تشاؤمهم القديم، قال صاحب اللسان (عطس): "وكانت العرب أهل طِيَرَة، وكانوا يتطيّرون من العُطاس فأبطل النبي صلى ا لله عليه وسلم طِيَرَتهم.

وأما اليَنْجَلِب فهي أيضاً عند صاحب اللسان (جلب): خرزة يُؤَخَّذ بها الرجال. حكى اللحياني عن العامرية أنهن يقلن:

أخذتــــه بـــــاليَنْجَلِبْ

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

فــلا يـــرم ولا يغـــبْ

ولا يـزَلْ عنـد الطُّنُـــبْ

قال: وذكر الأزهري هذه الخرزة في الرباعي، قال: ومن خرزات الأعـراب الينجلب، وهو الرجوع بعد الفرار، والعطف بعد البغض (اللسان: جلب).

أمّا كَرَارِ فقد جاء عنها في اللسان (كرر): وكَـرارِ مثل قَطَامِ خـرزة يؤخّذ بها النساءُ الرجال. وقال الكسائي: تقول الساحرة:

يـــاكَرَارِ كُرِّيـــــه

يـــاهَمْرةُ اهمِريـــــه

إن أقبـــل فَسُـــرِّيه

وإن أدبـــر فضُرِّيـــه

وفي اللســان أيضاً (همـر): والهَمْـرَة: خـرزة الحُـبّ يُسـتعطَف بهـا الرجال، يقال:

ياهَمْرَةُ اهمِريه، وياغَمْرة اغمريه..

ومن تسميات هذا الحقل الدلالي: الجُلْبة، وهـي العُـوْذَة تُخـرز عليهـا جلدة، وجمعها الجُلَب. قال علقمة يصف فرساً:

بغَـوجٍ لَبَانُــه يُتَــمُّ بَرِيمُــه[؟]   على نَفْثِ راقٍ، خشيةَ العين، مُجْلَبُ

يُتَمّ بريمه: أي يطال إطالة لسعة صدره. والمُجْلَب: الذي يجعل العـوذة في جلد ثم تُخاط على الفرس. والغَوْج: الواسع جلد الصدر. والبريم: خيـط يعقد عليه عوذة (اللسان: جلب).

ويستخلص من هذه المقبوسات أن القَبَلة والقبيل، والفَطْسة، وكَـرارِ،

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

واليَنْجَلِب، والهَمْرة.. خرزات أو تمائم يُتعوَّذ بها فتُعلَّق في عنق الدابة لتُدْفَعَ العينُ بها، ويُؤخَّذَ بها الرجال، ويؤمل أثرها في "الرجوع بعد الفرار، والعطف بعد البغض". وقُرن بعضها بالحب واستعطاف الرجال، ولكي تفعل تلك التمائم فعلها جعلوا من لوازمها أسجاعاً منغّمة ربط الكسائي أداءها بالساحرة فبدا العمل في مجمله وكأنه موروث الكهان، ولايستبعد أن يكون قد رافق ذلك بعض "الطقوس" والحركات أو حرق البخور أو التَّغْبير أو رشَ العطور ومايشبه ذلك.

ومن هذه التسميات: الرَّتمة، وهي "الخيط يُعْقد على الإصبع، والخاتم للعلامة، وفي المحكم: خيط يعقد على الإصبع للتذكُّر. وفي الصحاح: خيط يشد في الإصبع لتُستذكر به الحاجة.. والرتيمة: أن يعقد الرجل إذا أراد سفراً شجرتين أو غصنين يعقدهما غصناً على غصن، ويقول: إذا كانت المرأة على العهد ولم تخنه بقي هذا على حاله معقوداً وإلا فقد نقضت العهد، وفي المحكم: فإذا رجع فوجدهما على ماعقد قال: قد وفت امرأته، وإذا لم يجدهما على ماعقد قال: قد نكثت"[١٨].

ومن الواضح أن هذا الأصل في دلالته اللغوية لاينطبق تماماً على فكرة الرُّقى والتعاويذ في دفع الأذى، ولكنه يشترك مع جوهر الفكرة في الاعتقاد والتصور، وفي ظاهرة "العقد" والربط والخيوط. كما يلتقي مع فكرة عدم الجدوى من ذلك كله (على ماعبّر الشعراء) كقول أحدهم:

هل يَنْفَعنْك اليوم إنْ همّتْ بهم كثرةُ ماتوصي وتَعقادُ الرَّتَمْ؟

والرَّتَم هنا جمع رَتَمة وهي الرتيمة[١٩].

ومن ذلك "الحِرْز". والحِرْز في الأصل: الموضع الحصين. قال صاحب

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

اللسان: "ويسمّى التعويذ حرزاً"[٢٠] . وتدور هذه التسمية على ألسنة العوام في لغة الحياة اليومية، في الريف السوري.

ومن ذلك أيضاً "التُّوَلة". جاء في لسان العرب: "والتُّوَلة والتَّوَلة: ضرب من الخَرَز يوضع للسحر فتُحَبَّبُ بها المرأة إلى زوجها، وقيل: مَعَاذة تُعلَّق على الإنسان، قال الخليل: التِّوَلة والتُّولة (بكسر التاء وضمها): شبيهة بالسحر"[٢١] .

وإلى جانب السحر والتعويذ يدخل في هذه الدائرة "التنجيس"، ويستفاد من اللسان وأساس البلاغة وتاج العروس والعُباب (نجس) أن "التنجيس شيء كانت العرب تفعله كالعوذة تدفع بها العين، ومنه قول الشاعر (بعدة روايات):

كان لديَّ كاهنان وحارثٌ وعَلَّقَ أنجاساً علي المنجِّس

ويقال للمعوِّذ: مُنَجِّس، وكان أهل الجاهلية يعلّقون على الصبي ومن يخاف عليه عيون الجن الأقذار من خِرَق المحيض ويقولون: الجن لاتقربها.

والنَّجْس: اتخاذ عوذة للصبي.. ونَجَّسَه: عوَّذَه، قال:

وحازيةٍ ملبونة ومُنَجِّسٍ وطارقة في طرقها لم تُشدِّدِ

يصف أهل الجاهلية أنهم كانوا بين متكَهِّنٍ وحَدّاس وراقٍ ومنَجِّس ومتَنَجِّم حتى جاء النبي صلى الله عليه وسلم. ابن الأعرابي: من المعاذات التميمة والجُلْبة والمنجِّسة". والحازية الملبونة: المتكهّنة سقيت اللبن. وقيل: ملبوبة أي لبيبة. وطارقَة: تضرب بالحصى وتتكهن (بصَّارة).

ويبدو أن شيئاً من هذا استمرّ في بعض مظاهره المتوارثة إلى وقت لاحق من العصر الإسلامي، إذ يحكى عن الأعرابي أبي مهدية (ق ٢ هـ) أنه

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

كان يعلق صوفاً وقذراً على ملابسه، فإذا سئل عنه قال: أنجاس، حتى يتنجّس مني الموت فلا يقدر علي.. وكان يضرب حنكه يميناً وشمالاً ويقول: اخْسَأُنانٍّ عني، وسئل عن ذلك فقال: جِنّان تَدْأمُني (يعني: تركبني).

ومما وقفت عليه من ممارسة الرُّقى "عملية" كان يقوم بها شيخ قيل لي حين استفسرت عن أمره: إنه يحبس "التابعة". ووجدت في اللسان: "التابعة: الرِّئِيّ من الجن(٢٢). ألحقوه الهاء للمبالغة أو لتشنيع الأمر أو على إرادة الداهية. والتابعة: جنّية تتبع الإنسان.. وقولهم: معه تابعة، أي من الجن"(٢٣).

ومن الأخبار المُتناقلة في هذا الإطار أنّ شِظَاظاً (وهو لص) اجتاز على امرأة من بني نمير تَعْقِل بعيراً لها وتتعوّذ من شِظاظ، وكان شظاظ على بَكْرٍ (الفتي من الإبل)، فنزل وسرق بعيرها، وترك هناك بَكْرَه"(٢٤).

إن ماعرضنا له ووقفنا عنده من الدلالات اللغوية والشواهد يبقى في (الدائرة النظرية) لظاهرة الرَّقي والتعويذ، إن صح التعبير. أي يبقى قراءة، أو كلاماً، أو لغواً، أو شيئاً يعلّق في الأعناق أو على الأولاد للحماية مما سبق ذكره من الآفات والمخاطر.

أما مايتجاوز ذلك إلى (الدائرة العلمية أو التطبيقية) فقد زاولوه في الإعطاء أو الإسقاء، وأشركوا فيه الأطباء بغية الإبلال من المرض، أو التماساً للراحة والسلوان.

قال صاحب اللسان من ذلك"

"وأنشد ابن برّي:

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة
www.alukah.net

جعلتُ لعرّافِ اليمامة حُكْمَهُ وعرَّافِ نجدٍ إن هما شَفَياني
فما تركا من رُقْيَةٍ يعلمانها ولاسَلْوةٍ إلا بها سَقَياني

وقال بعضهم: السُّلوان دواء يُسقاه الحزين فيسلو، والأطبّاء يسمّونه المُفَرِّح"(٢٥) .

ويلحظ المتأمل أن الشاعر أتى على ذكر الشفاء والعرّاف والسُّقيا والرُّقية.. وابن منظور أيَّدَ هذا فذكر الدواء والأطباء، لكأنّ هناك نشاطاً إجرائياً يسهم فيه أكثر من متخصص!. ولكن من أين جاءت هذه الفكرة في المأثور اللغوي؟! يقول ابن فارس:

"سلوى: أصل واحد يدل على خفض وطيب عيش.. ويقولون: سلا المحبّ.. وذلك إذا فارقه ماكان به من همٍّ وعشق. والسُّلْوانة: الخرزة، وكانوا يقولون إنّ من شرب عليها سلا مما كان به، وعمّن كان يحبه.

قال الشاعر:

شربتُ على سُلْوانةٍ ماءَ مُزْنةٍ فلا وجديدِ العيشِ ياميَّ ماأسْلو (٢٦)

وينقل صاحب اللسان عن ابن الأعرابي قوله: "السُّلْوانة: خرزة للبغض بعد المحبة(٢٧) وعن ابن سيدة: السَّلْوة والسُّلوانة: كلاهما خرزة شفافة إذا دفنتها في الرمل ثم بحثت عنها رأيتها سوداء يُسقاها الإنسان فتسليه. وقال: السلوانة: خرزة تُسحق ويشرب ماؤها فيسلو شارب ذلك الماء عن حب من ابتلي بحبه"(٢٨) .

وجاء في اللسان أيضاً: "السلوان: هو أن يؤخذ من ترابِ قبرِ ميتٍ فيذَرّ على الماء فيُسقاه العاشق ليسلو عن المرأة فيموت حبه، وأنشد:

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

يـاليتَ أنَّ لقلـبي مَـنْ يُعَلِّلـه أو ساقياً فسـقاني عنـك سـلوانا

والسُّلْوانة: خـرزة كـانوا يقولـون إذا صُـبّ عليهـا مـاء المطـر فشـربه العاشق سلا، واسم ذلك الماء السلوان"[٢٨] .

وهكذا يتعاقب ذكـر الـدواء والخـرزة الـتي يُشـرب عليهـا أو يشـرب ماؤها بعد أن يذّر عليه تراب من قبر، أو تشرب هـي وصـولاً إلى الشـفاء والراحة وذلك هو جوهر فكرة الرُّقى والتعاويذ..

وجاء في اللسان: "الحازي: الذي ينظر في الأعضاء وفي خِيْلان الوجـه يتكهّن" وقريـب منـه العـرّاف، والكـاهن، والطـارق، والخَـرَّاص، والعـائف. والحَزَا والحَزّاء جميعاً: نبت يشبه الكَرَفْس، وهو مـن أحـرار البقـول، ولريحـه خَمْطَةٌ، تزعـم الأعـراب أنَّ الجـنّ لاتدخـل بيتـاً يكـون فيـه الحَـزَاء، والنـاس يشربون ماءه من الريح ويعلَّق على الصبيان إذا خُشي على أحدهم أن يكون بـه شـيء.. وفي حديـث بعضهـم: الحَـزَاة يشـربها أكـايس النسـاء للطُّسَّـة، والطُّسَّة: الزُّكـام. وفي روايـة: يشـربها أكـايس النسـاء للخافيـة والإقـلات؛ الخافية: الجنّ، والإقلات: موت الولد، كـأنهم كـانوا يـرون ذلـك مـن قبـل الجن، فإذا تبخّرْنَ به مَنَعَهنّ من ذلك. (اللسان: حزا).

ولكن ماحكم العقل والاعتقاد في هذه الظـاهرة الاجتماعيـة؟ سـبقت الإشارة إلى عدم الجدوى من هذه الرقى والتمائم كما عبّر كثير من الشـعراء من مثل[٢٩]:

هل يَنْفَعَنْك اليوم إن همّت بهـم كـثرة مـاتوصي وتعـاقد الرَّتْـم؟

ومن مثله قول أبي ذؤيب: "ألفيت كل تميمة لاتَنْفَع" ومنه قول المثقب العبدي: "أم هل له مـن حمـام المـوت مـن راق؟" وماشـفى عـرّافُ اليمامـة،

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

ولاعرّافُ نجد أو حَجْر عروةَ بن حِزام.. لقد كان هناك يأس مُعْلَنٌ أحياناً من جدوى تلك التعاويذ، وكان إلى جانب ذلك يأس خفيّ دفين من نفعها. ولكنّ النفس نزّاعة إلى الحُلُم تلتمس مخرجاً من الحصار ولو بباب من الوهم. ثم إن للعادات الاجتماعية والموروثات سَطْوَتها وتأثيرها الإحيائي الذي ليس من اليسير إغفاله.

أمّا الحكم الديني في أمر هذه الظاهرة فقد كان أقرب إلى المرونة والسماحة منه إلى الاشتراط الصارم. إذ جاء في كتاب "النهاية في غريب الحديث والأثر" قول المؤلّف: "قد تكرّر ذكر الرُّقْية والرُّقَى والرَّقْي والاسترقاء في الحديث. والرقية: العُوذة التي يُرْقَى بها صاحب الآفة كالحُمّى والصَّرْع وغير ذلك من الآفات. وقد جاء في بعض الأحاديث جوازها، وفي بعضها النهي عنها: ففي الجواز قوله (استَرْقُوا لها فإن بها النَّظْرة)، أي اطلبوا لها من يرقيها. ومن النهي قوله: (لايَسْتَرقون ولايَكْتَوون)، والأحاديث في القسمين كثيرة، ووجه الجمع بينهما أنَّ الرُّقى يُكره منها ماكان بغير اللسان العربي، وبغير أسماء الله تعالى وصفاته وكلامه في كتبه المنزَّلة، وأن يُعْتَقدَ أن الرُّقْيا نافعة لامحالة فيُتَّكل عليها، وإياها أراد بقوله: (ماتوكَّل من استرقى)، ولايكره منها ماكان في خلاف ذلك، كالتعوّذ بالقرآن وأسماء الله تعالى، والرُّقى المروية"[٣٠].

وجاء في الكتاب نفسه: "وكقوله في حديث جابر أنه عليه الصلاة والسلام قال: «اعرضوها عليّ، فعرضناها فقال: لابأس بها، إنما هي مواثيق»، كأنه خاف أن يقع فيها شيء مما كانوا يتلفظون به ويعتقدون من الشِّرك في الجاهلية، وماكان بغير اللسان العربي، مما لايُعْرَف له ترجمة

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

ولايمكن الوقوف عليه فلا يجوز استعماله"[٣١]. ونهى عن تعليق التعاويذ التي تكتب وتُعلَّق على الإنسان من العين[٣٢] .

وجاء في كتاب "التفسير المنير" قول صاحبه:

"أجاز أكثر العلماء الاستعانة بالرُّقى أو الرُّقية؛ لأن النبي صلى ا لله عليه وسلم اشتكى، فرقاه جبريل عليه السلام، وقال: (بسم ا لله أرقيك، من كل شيء يؤذيك، وا لله يشفيك).

وقال ابن عبّاس: كان رسول ا لله صلى ا لله عليه وسلم يعلمنا من الأوجاع كلها والحمّى هذا الدعاء: "بسم ا لله الكريم، أعوذ با لله العظيم من شرّ كل عرق نَعّار، ومن شرّ حرّ النار".

وقال صلى ا لله عليه وسلم: "من دخل على مريض لم يَحْضُر أجله، فقال: أسأل ا لله العظيم ربَّ العرش العظيم أن يشفيك ــ سبع مرات، شفي".

وعن علي رضي ا لله عنه قال: "كان رسول ا لله صلى ا لله عليه وسلم إذا دخل على مريض قال: أذْهِبِ الباسَ ربَّ النَّاس، أنت الشافي، لاشافي إلا أنت".

وعن ابن عباس رضي ا لله عنهما قال: كان رسول ا لله صلى ا لله عليه وسلم يُعوِّذ الحسن والحسين يقول: "أعيذكما بكلمات ا لله التامّة من كل شيطان وهامّة، ومن كل عين لامّة"[٣٣] .

وأضاف المؤلف: "والأصح جواز النَّفْث عند الرُّقى، بدليل ماروى الأئمة عن عائشة: أن النبي صلى ا لله عليه وسلم كان يَنْفُث في الرُّقية. وأجاز الإمام الباقر تعليق التعويذ على الصبيان. وأما النهي عن الرقى فهو

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

وارد على الرقى المجهولة التي لايفهم معناها"[٣٤] .

وقد أقرّ النبي صلى الله عليه وسلم ــ فيما رواه الأئمة ــ الاستشفاء بالقرآن، والرقية بالفاتحة بقراءتها سبع مرات على لديغ.. وقال الإمام مالك: لابأس بتعليق الكتب التي فيها أسماء الله عز وجل على أعناق المرضى على وجه التبرّك بها"[٣٥] .

ويستخلص من هذا "الإباحة" و"التحذير" أو عدم الجواز ولايخفى أن إباحة الاسترقاء تتجه إلى التسرية عن نفس المصاب بذكر أسماء الله تعالى، أو بسماع بعض آي الذكر الحكيم مما يُفيء على المسلم المؤمن الاسترواح والطمأنينة والدعة، ويقوّي هذا تكرار ذكر التعوّذ الذي به سمّيت (قُلْ أعُوْذُ بِرَبِّ الفَلَقَ) و (قُلْ أعُوْذُ بِرَبِّ النَّاس) المُعَوَّذَتين[٣٦]. والمسموع الشائع ترديده في الاسترقاء أيضاً: "باسم الله أرقيك والله يشفيك". وصح أن جبريل عاد النبي صلى الله عليه وسلم فقال: "بسم الله أرقيك من كل شيء يؤذيك"[٣٧].

وهذا كله جليَّةٌ سلامته، ولامحذور منه مالم يستقر الإعتقاد عند المريض بثبوت النفع الخالص عن طريقه، ففي ذلك ــ إن حدث ــ تسليم بإمكان دفع الأذى عن غير طريق المشيئة الإلهية، وهو اعتقاد لايصح قبوله أوفشوُّه.

أما ماينبغي العزوف عنه وتجنبه فالاسترقاء على غرار المشركين الذين كانوا يعُوذون بغير الله عزّ وجلّ، ويرقون بكلام لايُفهم، أو يرطنون بغير اللسان العربي، ومن البداهة ألا يجوز هذا خشية أن يفتن من يزاولونه، أو أن يضعف إيمانهم، فضلاً عما ينطوي عليه من التعلّق بما هو غير مفهوم، وغير

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

إسلامي. ولعله من هنا جاء التشدّد في الحكم باستنكار ما لم يكن إسلامياً بحتاً خالصاً، على مانقل ابن منظور بقوله:

"وفي حديث ابن مسعود" التمائم والرُّقى والتُّوَلة من الشِّرك"(٣٨) وشبيه بهذا النهيُ عن إتيان الكهّان والمنجّمين والعُرَّاف وأصحاب الرمل والطوارق بالحصى وبالشعير ونحو ذلك(٣٩).

ومما يذكر هنا قول صاحب اللسان: "وفي الحديث: قلّدوا الخيل، ولاتقلّدوها الأوتار، أي قلدوها طَلَب أعداء الدين والدفاع عن المسلمين، ولاتقلّدوها طلب أوتار الجاهلية وذحولها التي كانت بينكم، والأوتار: جمع وِتْر، وهو الدم وطلبُ الثأر، يريد اجعلوا ذلك لازماً لها في أعناقها لزوم القلائد للأعناق.. وقيل إنما نهاهم عنها لأنهم كانوا يعتقدون أن تقليد الخيل بالأوتار يدفع عنها العين والأذى فيكون كالعُوْذة لها، فنهاهم وأعلمهم أنها لاتدفع ضرراً ولاتصرف حَذَراً". (اللسان: قلد).

وجاء في اللسان أيضاً (مادة:وتر):

"كانوا يقلدون أعناق الخيل الأوتار، فأمرهم صلى الله عليه وسلم بقطعها، وعن مالك بن أنس قال: كانوا يقلّدونها أوتار القِسِيّ لئلا تصيبها العين فأمرهم بقطعها، يعلمهم أن الأوتار لاتردّ من أمر الله شيئاً؛ قال: وهذا شبيه بما كره من التمائم، ومنه الحديث: من عقد لحيته أو تقلّد وتراً، كانوا يزعمون أن التقلُّد بالأوتار يردّ العين ويدفع عنهم المكاره، فنُهوا عن ذلك".

وغني عن القول إن ماكان من مسلك الجاهليين في مثل هذا معدود في حكم المستنكَر والمنهيّ عنه لتعارضه مع قيم الإسلام وتعاليمه. أما التسامح أو الإباحة فمقرونان بما هو في ظلّ الإسلام، وبما يذكر معهما من كتاب الله

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

عز وجل.

وثمة كلام آخر ساقه صاحب "النهاية" يعزّز ماقلناه من اتصاف الحكم الفقهي هنا بالمرونة والتسامح، قال:

"..فأما العوام فمُرخَّص لهم في التداوي والمعالجات، ومن صبر على البلاء وانتظر الفرج من الله بالدعاء كان من جملة الخواص الأولياء، ومن لم يصبر رُخِّص له في الرُّقية والعلاج والدواء"(٣١). ونقل عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قوله: "لارُقية إلا في نفس أو حُمَة أو لدغة"(٤٠).

وهذه الرخصة قرينة التسامح مادام الضرر غير واقع أو محقق. ولعل أهم مايستوقف المرء هنا أن الحكم الديني لم ينصح باللجوء إلى الرُّقى والتعاويذ أو يحضّ عليها. وعلى هذه الصورة بدا الأمر كحكم الطبيب بوصف الدواء المسكّن للألم، ولكنه ليس المعالج الحقيقي للداء.

ويقول الدكتور وهبة الزحيلي: "وعلى كل حال، إن الفاعل الحقيقي المؤثر هو الله تعالى، أما الأدعية المأثورة، وتلاوة آيات الشفاء، والفاتحة والمعوذات وغير ذلك فهي من وسائل الفرج والبرء بإذن الله تعالى، بشرط تعظيم القرآن في الصدور، والإيمان الصادق به، والبعد عما لايتناسب مع تعظيم آيات الله تعالى. ولايعني هذا الاكتفاء بالرقى عن المداواة والعلاج بالأدوية الناجعة، فذلك كله من الوسائل التي أذن الشرع بها، بل وأوجبها لصيانة حق الحياة"(٤١).

ولايخلص البحث في هذا الموضوع للجانب اللغوي والاعتقادي وحدهما، وإنما يتسع لمزيد من الاطلاع على طبيعة المجتمع العربي القديم وتحرّي عادات العرب وتقاليدهم القديمة.

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

الحواشي والإحالات

(١) اللسان: رقا (ط. دار صادر. بيروت. بلا تاريخ).

(٢) مقاييس اللغة: (ط٢. البابي الحلبي وأولاده بمصر ـ ١٩٦٩).

(٣) نفسه: عوذ.

(٤) اللسان: عوذ.

(٥) النهاية في غريب الحديث والأثر للإمام مجد الدين المبارك بن محمد الجزري، ابن الأثير (ت٦٠٦هـ) ج٢/٢٥٤تحقيق محمود محمد الطناحي، طاهر أحمد الزاوي ـ المكتبة العلمية ـ بيروت (بلا تاريخ).

(٦) نفسه (٢/٢٥٤).

(٧) يذكر هنا قول النابغة في الرقية من "سوء سم" الأفعى: تناذرها الراقون من سوء سمها..

(٨) المقاييس: رقأ. وفي اللسان: رقأ: "وفي الحديث: لاتسبّوا.." بدلاً من "وفي كلامهم.

(٩) اللسان: رقأ.

(١٠) الأصمعيات لابن قريب الأصمعي. تحقيق وشرح أحمد محمد شاكر. عبد السلام محمد هارون. دار المعارف بمصر. ط٤ـ١٩٧٦.

(١١) اللسان: نذر، رقا

(١٢) انظر: شعر عمرو بن شأس الأسدي ص١٠٨ـ١٠٩، د.يحيى الجبُوري، مطبعة الآداب ـ النجف الأشرف، ط١٩٧٦.

(١٣) انظر: المفضليات ص٣٠٠ تحقيق وشرح أحمد محمد شاكر وعبد السلام محمد هارون. دار المعارف بمصر، ط٥ـ ١٩٧٦.

(١٤) اللسان: رقي.

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

(١٥) اللسان: تمم، وانظر المفضليات ص٤٠.

(١٥) مكرر: اللسان تمم.

(١٦) اللسان: تمم، وفيه (مادة: نوط): رقاع (بالقاف) بدلاً من رفاع (بالفاء).

(١٧) اللسان: تمم.

(١٨) نفسه: رتم.

(١٩) اللسان: رتم.

(٢٠) اللسان: حرز.

(٢١) اللسان: تول.

(٢٢) الرّئي (بفتح الراء وكسرها): الجنيّ يعرض للإنسان ويطلق على مايزعم من الغيب. المعجم الوسيط: رأى. (ط٢ دار المعارف بمصر ١٩٧٣م).

(٢٣) اللسان: تبع.

(٢٤) اللسان: نقض.

(٢٥) اللسان: سلا. والبيتان لعروة بن حزام. انظر: الأغاني لأبي الفرج الأصفهاني (ت٣٥٦هـ): ج٢٤/١٣٠. شرحه وكتب هوامشه عبد أ.علي مهنا، سمير جابر. دار الكتب العلمية ط٢ - بيروت ١٩٩٢.

(٢٦) مقاييس اللغة: سلوى.

(٢٧) اللسان: سلا.

(٢٨) نفسه.

(٢٩) تنظر الحاشية (١٩) واللسان: رتم.

(٣٠) النهاية ج٢/٢٥٤-٢٥٥، واللسان: رقي.

(٣١) نفسه ج٢/٢٥٥.

(٣٢) اللسان: عوذ.

(٣٣)انظر "التفسير المنير في العقيدة والشريعة والمنهج" ج٣٠/٤٧٦. تأليف الدكتور وهبة الزحيلي - دار الفكر المعاصر. بيروت - لبنان. دمشق - سورية ١٩٩١.

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

(٣٤) نفسه ج٣٠/٤٧٧.

(٣٥) نفسه ج١٥/١٥٤-١٥٥.

(٣٦) النهاية في غريب الحديث ج٣/٣١٨، وفي "الفقه الإسلامي وأدلته" الجزء الثاني ص٤٤٧: "أن يقرأ عنده سورة الإخلاص والمعوَّذتين" تأليف الدكتور وهبة الزحيلي. دار الفكر: بيروت ـ لبنان. دمشق ـ سورية ١٩٨٤.

(٣٧) الفقه الإسلامي وأدلته ج٢/٤٧٧ (م.س) وفيه روايات وصياغات بألفاظ أخرى.

(٣٨) اللسان: تمم.

(٣٩) انظر: "رياض الصالحين من كلام سيد المرسلين" ص٥٩٠ للإمام الحافظ أبي زكريا يحيى بن شرف النووي. بتحقيق رضوان محمد رضوان ــ دمشق، بلا تاريخ.

(٤٠) مسند أحمد. حديث ١٥٤١١: وجاء في السند قول سهل بن حنيف: مررنا بسيل فدخلت فاغتسلت منه فخرجت محموماً، فنُمي ذلك إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: مُرُوا أبا ثابت يتعوّذ، فقلت ياسيدي: والرُّقى صالحة؟ قال: لارقية إلا في نفس أو حُمة أو لدغة. قال عفّان: النظرة واللدغة والحمة. اهـ.

(٤١) التفسير المنير ج١٥/١٥٥.

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net